رفيق العمر وصديق الخير
ذكريات عن الشّاعر سميح القاسم

محمد علي طه

لا أذكر الأمر الذي أشغلني في تلك الأيّام، فمرّ شهر أو شهران ولم نلتقِ. وقد كنّا نلتقي يوميّا أو أسبوعيّا. وفي ضحى أحد الأيام هاتفني صديق مشترك لنا وقال بلهجة مغموسة بالأسى: "صديقنا مريض، سميح مريض بذلك المرض!." فأربكني. "ذلك المرض" اسم شائع ومتعارف عليه للمرض الخبيث الذي يخشى النّاس ذكر أسمه. ماتت سمّاعة الهاتف في راحتي. ونشف ريقي. غادرت البيت ولم أخبر زوجتي، على غير عادتي، بجهة سفري وميعاد عودتي. ولو أخبرتها لأصرّت على أن ترافقني فسميح صديق للعائلة. وأولادي يحبّونه. "عمّو سميح أبو مُحَمّد". وعندما يزورنا يتحلّقون حوله مستمتعين بحديثه الشجيّ. ويؤكدون لي على أنّه يختلف عن جميع أصدقائي من الأدباء والشعراء.

قدت سيّارتي إلى الرّامة. إلى البيت الشّامة على عنق جبل حيدر. كم جلسنا به وأكلنا وشربنا وتحاورنا وتناقشنا واتّفقنا كثيرا واختلفنا قليلا.

وجدته يجلس على سرير بسيط في غرفة صغيرة من غرف البيت الكبير، قريبة من المطبخ ومن أمّ العيال ومن الدّيوان. ابتسم حينما شاهدني فصافحته وجلست على كرسيّ مقابل له ولم أساله: كيف الصّحة أو كيف حالتك أو ماذا جرى لك؟ مرّت دقائق ونحن صامتان وفجأة قال ببساطة وكأنه يقول لي خبرا عاديّا: اكتشف الأطبّاء ورمًا خبيثا عندي!! قلت:سلامتك.... وعدنا إلى الصّمت .. الصّمت الناطق.

أنا لا احبُّكَ يا موتُ.

لكنّني لا أخافُك .

وأنت صغير عليّ.

وبحري تضيقُ عليه ضفافُك.

أخبرني صديقي نبيه القاسم عندما خرجنا من غرفة سميح ومن بيته أنّ الأطبّاء المختصّين يتوقعون بأن يعيش ثلاثة أشهر فقط. وطلب منّي أن نجلس معا، في الغداة، لنتشاور في ترتيبات الجنازة حتى لا يفاجئنا موتُه كما فاجئنا مرضُه. ولكنّ سميح القاسم عاش ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وهو يصارع المرض بشجاعة:

إشرَب فنجان القهوةِ

يا مرضَ السّرطان

كي اقرأ بختك في الفنجان

إشرب!

حينما انطلقت "مواكب الشّمس" في خريف العام ١٩٥٩ مبشرةً بميلاد شاعر ما كانت أجهزة الهاتف وخطوطه يومئذ قد وصلت قرانا في الجّليل بفضل سياسة واحة الدّيمقراطيّة فأرسلنا رسالة بالبريد العاديّ من بلدة كفرياسيف الجليليّة حيث كنّا ندرس في ثانويّتها الى قرية الرّامة نصّها ثلاثة فتيان يحبّون الأدب ويخربشون قصائد وقصصًا ويقرأون بشغف دواوين علي محمود طه ونازك الملائكة وأبي القاسم الشّابّيّ وروايات عبد الرّحمن الشّرقاويّ وتوفيق الحكيم فجاء الرّدّ سريعا من صاحب "المواكب" يدعونا إلى زيارته في رامته فسافرنا بالمواصلات العامّة: محمود سليم حسين درويش وسالم يوسف جبران والضّلع الثّالث الباقي حيًّا يرزق من أضلاع ذلك المربّع الثّقافيّ الجميل يردّد "ذهب الذين أحبّهم"، ومنذ ذلك اللقاء حتّى آب ٢٠١٤ غابت ستّة وخمسون عاما. سنوات عامرة بالأحداث السّياسيّة وبالثّورات وبالانتصارات وبالانتكاسات، عامرة بالإبداع وبالعطاء وبزرع الورد والقمح النّورسيّ، وبالأمل والحبّ. ومنذ ذلك النّهار توطّدت بيننا صداقة حميمة وصفها سميح القاسم بمقطوعة أدبيّة جميلة بعنوان "في الصّداقة ومحمّد علي طه" نشرها في مجلّة الشّرق التّي كانت تصدر في مدينة شفاعمرو ويحرّرها د.محمود عبّاسيّ في عدد تكريميّ خاصّ بي.

وهذا هو النّصّ:

"واعلم أيّها الأخ العزيز، أيّدك الله وأيّانا بروح منه، أنّ الأشخاص عوالم مؤتلفة على اختلاف، مختلفة على ائتلاف، تجتمع على قيد شعرة إذا هي اجتمعت، حتّى لكأنّ قيد الشّعرة باحات من الفضاء وساحات النّور. أمّا إن هي افترقت حدّ شفرة فانّ فراسخ ظلمةٍ تحيط بالبصر وتحيق

بالبصيرة، فإذا سنبلة الودّ خواء والعرى الوثقى قبض ريح..

وأمور الأشخاص مرهونة بذواتها، وذواتها سُدُلٌ مغلقةٌ وغيوبٌ مطبقةٌ، ومهما يكن من وهمك في إدراكها فإنها تؤثر الحُجُب، وتستر العلّة والسّبب، في حالات الرّضا والغضب، وتركن إلى أسرارها موزّعةً بين جذب ودفع في دوّامة من منازع الخير ونوازع الشّرّ.

وصداقة الأشخاص مشروطة بصدق النّوايا، فإذا غاب الصّدق بطلت الصّداقة، واختلطت نواهي العقل بنهايات العاطفة، وغلت في غلوّها الغرائز، وتفتّقت أسباب الوصل، واستحكمت النّميمة، واستعظمت الخيبة، واحتقنت الحضرة فوق احتقان الغيبة.

وأمّا بعد،

فقد كلّفني بعض الصّحب مشكورين – واستجبت شاكرا – بكتابة سطور من الرّأي والوجدان في واحد من أصدقاء العمر ورفاق الخير هو الكاتب المُجيد والصّديق القديم الجديد محمّد علي طه، وقد واكب شكرَ التّكليف عنتُ التّصريف، فما أنا ممّن تغريهم الكتابة عن صديق رحل وغاب، وسهل فيه الرّصد والحساب، فكيف تطيعني هذه حين يكون موضوعها صديق يقبل على الحياة وتقبل عليه كأنما عاشقان في فاتحة العهد وذروة الوجد؟

لعلّ ثلاثة عقود من عمر صداقتنا هي دورٌ في زمننا الحديث وكورٌ في طبيعة العلاقات البشريّة الرّاهنة. وعليه فانّ قسمات المعرفة قابلة للإحصاء بكلّ ما فيها من تجاعيد التّنافر ومرايا الصّفاء. وإذا كنت ذات يوم بعيد قد لخّصتُ أبا عليّ بالتّعبير الصّارم الجّازم: هو كاتب جيّد وصديق رديء.. فانّني ذاهبٌ إلى القول في هذا اليوم: هو صديق جيّد وكاتبٌ جيّد، دون حرج من مساءلة، أو حرص من الوقوع في المجاملة.

وعلى مرّ عهدي به لاحظتُ براءة "خُبثِهِ" المدنيّ المصنوع وبراءة براءته الصّادرة عن قرويّ مطبوع، وإنها لنقطة تسجّل حتمًا لصالح الرّجل، فهو لو يستنكف عن مظاهر الحداثة وطفرات الحداثيّين، بيد أنّه لم ينغمس في لعبة الأقنعة ولم يستسلم لغواية الافتعال بل ظلّ لصيقا بالجذور طليقا بين مقالع النّور، مولعا بعبق النّعناع، وأريج الحبق النّاصع، وفوح الميرميّة الرّائع، وبوح الزّعتر اللاذع.

وبهذا يكون أبو عليّ قد حقّق المعادلة وألغى المفاضلة بين الكاتب الحقّ والإنسان الحقّ. وبهذا يكون أبو عليّ قد وفّق بين صدق الإبداع وطيب الطّباع. وبهذا يكون أبو عليّ قد هيّأ لي ولسائر الأصدقاء أنّ نقرّ به عينًا، ونصفو فيه ذهنًا، ونشاطره فرحًا، ويقاسمنا حزنًا، ولهذا نتمنّى له طول العمر وفيض الخير ودفق البِشر، واجدين فيه حسن العزاء عن أصدقاء الظّاهر، خصوم الباطن، الذين تهيّأوا ظنًّا وتكشّفوا بلا معنى.

بوركت يا أبا عليّ. بورك أهلُكَ ونَسلُكَ. وبنعمة من لدن الله تمضي والى سابغ نعمه تفضي. وعلى صراطك المستقيم تسلُك وعلى صراطنا المستقيم نسلك، إلى يوم يتقابل البصران أعشى وحديد، ويوم تأتي كلّ نفس ومعها سائق وشهيد. وسلام الله عليك ورحمته وبركاته لك ولنا.. ربِّ استجب لدعائنا وارفق بأصدقائنا وامنُن بالعفو عن أعدائنا يا أرحم الرّاحمين.. آمين!"

سميح القاسم

رفض الشّابّ سميح القاسم حلم العائلة وتقليدها بأن يكون موظّفًا يعيش متنعّمًا ويحيا مسالمًا بل حمل صليبه وقصيدته طيلة ستّة عقود متحدّيًا أعداءه القوميّين والفكريّين والطّبقيّين الذين أجاعوه أيّاما وأعواما والذين قيّدوه أشهرا وسنوات كي يسكتوه إلا أنّه أعلن منذ طفولته وهو في قطار اربد – حيفا في العام ١٩٤١ في أثناء الحرب العالميّة الثّانيّة: أبدا لن أصمتَ. صوتي سوف يزعجكُم ويقلقكم ويخيفكم ويقضّ مضاجعكم. صوتي صياح الدّيك المبشّر بالفجر يستنهض النّيام. صوتي سلاح الشّعب في قطار الحياة المتحرّك أبدا إلى الأمام حتّى أعود إلى حفرة على سفح جبل حيدر.

ورفض سميح القاسم أيضا التّجنيد الإجباريّ الذي فرضته السّلطة الإسرائيليّة على الطّائفة العربيّة المعروفيّة وحينما حاولوا تجنيده بالقوّة هرب من البيت ومن القرية ولجأ إلى عدّة أماكن. جاء اليّ واختبأ عندي في بيتنا لمدّة يومين ثمّ انتقل إلى أماكن أخرى ولكنّهم تمّكنوا من اعتقاله وسجنه في العام ١٩٦٠ وكانت هذه تجربة السّجن الأولى. وفي غرفة التّوقيف النّتنة المعتمة يجري هذا المونولوج "معركتك ليست شخصيّة فحسب، أنت تعلم أنّهم لن يعدموك ولن يحكموا عليك بالسّجن المُؤبّد. تستطيع المكوث في السّجن العسكريّ لأيّام أخرى أو لشهور وحتّى لسنوات. أنت معنيٌّ بتوعيّة النّاس بأنّ التّجنيد الإجباريّ ليست مسألة عسكريّة فالصّهاينة لا يحتاجون إلى بضعة جنود عرب لحسم الحروب. إنّها مسألة سياسيّة قبل كلّ شيء. إنّها فقرة من برنامج فرّق تَسد. وأذرعة الحكم العسكريّ تحاصرك بتهمة الشّيوعيّة في مجتمع محافظ متديّن وفي بيئة شديدة التّخلف." وهذه التّهمة كانت قبل أن يكون سميح القاسم شيوعيّا بسنوات عديدة، ويحقّ لنا أنّ نتخيّل معنى هذه التّهمة وخطورتها في قرية عربيّة صغيرة وبين أبناء الطّائفة الدّرزيّة وفي عائلة تقف على رأس هرم الزّعامة القرويّة، أبناؤها وبناتها موظّفون، وكلّ ذلك في زمن الحكم العسكريّ البغيض وظلم حزب المباي الحاكم.

توطّدت علاقتي بسميح بعدما استقال من مجلّة "هذا العالم" بسبب موقف سياسيّ وطنيّ وعمل في صحيفة "الاتّحاد" الحيفاويّة وسكن في مدينة حيفا. سكن سميح في عدّة بيوت في حيفا، في شارع

عبّاس وفي شارع الكرمة وفي درج الموارنة وفي شارع يافا وفي شارع الياهو هنفي قرب ساحة الحناطير التي تسمّى اليوم ساحة باريس، ولمّا تزوّج عاد إلى الرّامة وسكن مع أهله في بيتهم القديم، وبعد سنوات بنى بيتا جميلا على سفح جبل حيدر وسكن فيه مع زوجته وأولاده. هذه البيوت أعرفها جيّدا. وكم استضافني في البيوت الحيفاويّة في أيّام العزوبيّة وكم سهرنا فيها.!

كنت ألتقي به وبمحمود درويش في نهار يوم الجمعة في مكاتب "الاتّحاد" في وادي النّسناس وكنّا نذهب معا إلى "مطعم إسكندر" أو "مطعم الأمم" أو مطعم آخر صغير في شارع الخوريّ ونتناول الحمّص يقدّمه لنا النّادل حسين الطّرعانيّ أو رجب الصّلح الحيفاويّ، وكان راتبه لا يكفي ولا يسدّ مصروفات شابّ حتّى لو عاش مقتّرًا في حين أنّ سميح كان كريمًا سخيّا.

ذات يوم شكا سميح ومحمود أحدهما للآخر جيوبه الفارغة فسخر منهما زميلهما ورفيقهما الصّحافيّ الدّمث علي عاشور وقال: نحن بجوار سوق الخضار والفواكه. عبّئا صحّارة من البلاستيك أو صندوقًا خشبيًّا بمختارات من شعركما الحديث وانزلا إلى السّوق فقد تبيعان شيئا يوفّر لكما ثمن وجبة غداء. اقترح محمود يومئذ على سميح أن يستدينا من رفيقهما وزميلهما الصّحافيّ محمّد خاصّ مبلغا من المال فوقفا معا أمام محمّد خاصّ الجالس على كرسيّه وراء طاولته في مكاتب "الاتّحاد" وأنشد سميح :

يا محمّدُ، يا أميرًا، يا ابن من كانت وتبقى.

أبدَ الدّهر أميرة.

أعطنا خمسين ليرة!!

نظر محمّد خاصّ إليهما شزرا وقال: أنا فقير مثلكما فانصرفا عنّي! فقال سميح القاسم:

يا محمّد، يا شهيرا، يا ابن من كانت وتبقى.

أبد الدّهر شهيرة.

أعطنا أربعين ليرة!

فقال محمّد خاصّ بحزم: أغربا من أمامي!

قال سميح القاسم:

يا محمّد يا كبيرا، ويا ابن من كانت وتبقى

أبد الدّهر كبيرة

أعطنا ثلاثين ليرة!

فقال محمّد خاصّ:أغربا عن وجهي. أنتما تستدينان منّي ولا ترجعان لي شيئا. انصرفا من هنا.

وهنا هتف سميح القاسم:

يا محمّد،

يا فقيرا يا ابن من كانت وتبقى

أبد الدّهر فقيرة

أعطنا عشرين ليرة!

وهنا قال محمّد خاصّ: معي عشر ليرات خذاها وأمري لله.

وعندما استفسرا عن هذا التّحوّل المفاجئ من زميلهما قال: بعد قافية أمير وأميرة، وشهير وشهيرة، وكبير وكبيرة، وفقير وفقيرة، لم يبق الا حقير وحقيرة، فقرّرت النّجاة بجلدي وبجلد أمّي.

ولعلّ ما حدث معهما مع المحامي حنّا نقّارة يلقي ضوءاً آخر أسطع وأقوى على حالتهما الماديّة القاسيّة.

كان حنّا نقّارة المحامي الوطنيّ المثقّف، محامي الأرض والشّعب الذي غنّت له النّساء في منطقة الشّاغور في الخمسينات:

طارت طيّارة فوق الليّه

الله ينصركوا يا شيوعيّه

حنّا نقاره جاب الهويّه

غصبن عن رقبة بن غوريونا

"والليّه" هي منطقة بين عكّا والشّاغور وأمّا بن غوريون فهو أوّل رئيس حكومة في إسرائيل.

وكان حنّا نقّارة محبّا للأدب وللشّعر ويعتزّ بأنّه تلميذ الكاتب اللبنانيّ مارون عبّود وأنّه صديق الشّاعر أبي سلمى. وكانت تربطه بسميح القاسم ومحمود درويش وتوفيق زيّاد وعصام العبّاسيّ علاقات متينة (وربطتني به علاقة قويّة) وكان يدعوهم أحيانا إلى بيته للطّعام والشّراب.

يقول سميح القاسم: ذات ظهيرة سأل صليبا خميس وهو صحافيّ شيوعيّ ترأسّ لسنوات تحرير صحيفة "الاتّحاد" وتحرير مجلّة "الجديد" الثّقافيّة: أين سنتغدى اليوم؟ قالا: لا مطاعم اليوم فلا نقود معنا اليوم.

قال صليبا: أمس ربح حنّا نقّارة قضيّة دسمة وعلينا أن نتغدّى على حسابه. وقد كلّمته بالأمر فرفض مدّعيًا أنّه متعبٌ ويريد النّوم. واقترح أن تبتزّاه شعريًا، وأنتما تعلمان أنّ أمّ طوني، زوجة حنّا نقّارة تتضايق كثيرا من الاسم "فاطمة" لانّ زوجها حنّا نقّارة كان كثير الادّعاء بأنّ الفنّانة المصريّة فاطمة رشدي أعجبت به كثيرا في شبابه، وعلى سبيل التّريقة ادّعى أبو طوني أنّ زوجته طردت خدّامة أحضرها لها لا لسبب سوى أنّ اسم تلك الخدّامة كان فاطمة.

اتّصل سميح ومحمود هاتفيًا بحنّا نقّارة وقالا:

يا أبا طوني ألا تذكرُها	دعوةً وجّهتها من قبل عام
يوم أقسمتَ بأن تُدخمَنا	بألذّ الخمر في أشهى الطّعام
فلماذا صرتَ لو أبصرتنا	بجوار البيت أسرعتَ تنام
انشغالٌ وهمومٌ يا أخي	أم قضايا؟ أم ترى تخشى المدام؟
لو ترى واحدنا "فاطمة"	كنت تسخو بحلال وحرام

تعامل أبو طوني، حنّا نقّارة، مع هذا الابتزاز بالمنطق الهادئ فلم يشأ أن تستمع زوجته لهذا الكلام وقال بتسامحه المشهود وبكرمه المعهود: اختارا المطعم الذي تريدان شريطة أن تسلّماني مخطوطة القصيدة قبل الطّعام.

وفي الطّريق إلى المطعم دَعَوَا كلّ من صادفهما من جياع وادي النّسناس على حساب حنّا نقّارة. وقبل الطّعام تسلّم أبو طوني المخطوطة لكنّه لم يفطن وهو الفطين إلى أنّ الشّاعرين حفظا أبيات القصيدة عن ظهر قلب ليعودا إليها ذات جوع قادم. وهذا ما حصل كما يقول سميح القاسم في مذكّراته.

عندما كان سميح القاسم محرّرا لمجلّة "الجديد" الثّقافيّة الشّهرية في بداية السّبعينات من القرن الماضي نشر فيها معظم قصص مجموعتي القصصيّة "جسر على نهر الحزين" ما عدا قصّة واحدة فقط هي قصّة "اللجنة" نشرتها "الجديد" عندما كان محرّرها محمود درويش، وعندما علم سميح أنّني أودعت المجموعة في مطبعة كلبونة في نابلس لإصدارها على حسابيّ الخاصّ اتّصل بي وعرض عليّ إصدارها بدار "عربسك" التّي أسّسها في تلك الأيّام وكانت الدّار قد أصدرت يومئذ باكورة إصداراتها رواية "المتشائل" للكاتب إميل حبيبي، وحينما وافقت على شروطه المغريّة في تلك الأيّام صمّم سميح الغلاف، فقد كان يهوى الرّسم، وكتب التّظهير وصدرت الطّبعة الأولى من المجموعة بألفي نسخة.

وعندما كنت محرّرا أدبيّا لصحيفة "الاتّحاد" في مطلع الثّمانينات من القرن العشرين حدث حصار بيروت الشّهير، فلأوّل مرّة تحاصر إسرائيل عاصمة عربيّة، وتحاصر منظمّة التّحرير الفلسطينيّة، قيادتها وكوادرها، والعالم العربيّ صامت، والعالم الغربيّ راضٍ. وفي عصر أحد الأيّام وكان الحصار يزداد ضراوة والطّائرات الإسرائيليّة تقصف بيروت الغربيّة بحممها جاء سميح إلى "الاتّحاد" يحمل قصيدة طويلة وناولني إيّاها وطلب نشرها في الملحق الأدبيّ في عدد يوم الجمعة القادم. قرأت القصيدة فوجدتها رائعة. تشاورت مع الكاتب إميل حبيبي، رئيس التّحرير فاقترح أن ننشرها على الصّفحة الأولى من الجريدة حيث الأخبار الهامّة، وهذا الأمر سابقة في الجريدة، ومن الطّريف أن أحد عاملي المطبعة وهو شيوعيٌّ قديمٌ وأصيلٌ اتّصل بي محذّرًا ولائمًا كيف أجيز نشر قصيدة فيها نقد للاتّحاد السّوفييتيّ وكيف يساوي الشّاعر الشيوعيّ بين متحف الارميتاج ومتحف اللوفر؟ فأجبته بأنّ القصيدة جيّدة جدّا وما عليه إلا أن يصفّها. فردّ: لن أصفّ القصيدة وسوف أشكوك إلى رئيس التّحرير. أخبرته بأنّ رئيس التّحرير هو من قرّر نشرها على الصّفحة الأولى فضرب كفًّا بكف وهو يقول "بدأ الخراب!" ورفض أن يصفّ القصيدة فقام عامل آخر من عمّال المطبعة بذلك.

كنت شاهدًا على ميلاد عدّة قصائد لسميح فقد كنّا في أحد الأيّام في زمن الانتفاضة الأولى نشارك في مظاهرة في القدس ضدّ الاحتلال الإسرائيليّ وحينما كنّا في شارع صلاح الدّين (سميح وإميل حبيبي ونبيه القاسم وأنا) تعرّضنا لقنابل الغاز، وفي هذه الأثناء كان تلاميذ المدارس المقدسيّون عائدين من مدارسهم إلى بيوتهم، فراحوا يرجمون جنود الاحتلال بالحجارة المخبّأة في حقائبهم المدرسيّة وهم يهتفون "كديما كديما... يا أولاد الكلب كديما" وكلمة "كديما" العبريّة تعني إلى الأمام أو تقدّموا ومن هنا بدأت قصيدة سميح "رسالة إلى غزاة لا يقرأون" :

تقدّموا تقدّموا
كلّ سماء فوقكم جهنّمُ
وكلُّ أرضٍ تحتكُم جهنّمُ
تقدّموا
يموت منّا الطّفل والشّيخ ولا يستسلمُ
وتسقط الأمُّ على أبنائها ولا تستسلمُ
تقدّموا بناقلات جندكم، وراجمات حِقدكُم
وهدّدوا وشرّدوا ويتّموا وهدّموا

لن تكسروا أعماقنا

لن تهزموا أشواقنا

نحن قضاءٌ مبرمُ

تقدّموا.

انتسب سميح القاسم إلى الحزب الشّيوعيّ في أثناء عدوان حزيران ١٩٦٧ وهو معتقل في سجن الدّامون وكتب قصائد ذات بعد ماركسيّ لينينيّ كما كتب قصيدة عن لينين وقصيدة عن غورباتشوف وقصيدة عن ماير فلنر. (السّكرتير العام للحزب الشّيوعيّ الإسرائيليّ) ودرس الماركسيّة في المدرسة الحزبيّة في موسكو في السّبعينات. كان ماركسيّا لينينيّا أُمميًّا ولكنّه مثل عدد غير قليل من الشّيوعيّين العرب لم يكن ملحدا بل كان مؤمنًا بالله وبالأنبياء وقد أسميتُ هذا النّوع من النّاس "مؤمناً علمانياً" وأُعجِبَ سميح بالتّعبير وصار يستعمله. ويظهر إيمان سميح في قصائد عديدة كما يظهر تأثير المذهب الدّرزيّ عليه في ديوان "سبحة للسّجلات" وفي قصائده عن أبي ذرّ الغفاريّ. وفي فترة ما راودته فكرة النّبوّة واتّفق مع الرّئيس الجّزائريّ أحمد بن بللا في لقاء في باريس بعد إطلاق سراح بن بللا على تأسيس مذهب دينيّ جديد وعصريّ واتّصل سميح بي بعد عودته إلى البلاد عارضًا عليّ أن أكون ثالثهما ودار بيننا حديث طويل وحوار عميق هادئ أحيانا وساخن أحيانا أخرى. وقد قال لي يومئذ فيما قاله: "كان هارون عضدا لموسى، وكان يوحنّا مساعدا لعيسى وكان سلمان الفارسيّ سندا لمحمّد فلماذا لا تقوم بهذا الدّور؟" وقال أيضا سنبدأ بمجموعة صغيرة ثمّ تتطوّر وتتوسّع. هكذا بدأت الدّيانة المسيحيّة والدّيانة الإسلاميّة. وفي تلك الفترة كتب كتاب "الإدراك" الذي يبشّر برسالته النّبويّة. وهذا الكتاب لم يُثر أي نقاش ولم يكتب أحد عنه أبدا على عكس مجموعاته الشّعريّة.

في إحدى زياراته لربوع الاتّحاد السّوفييتيّ زار جمهوريّة جورجيا وعاصمتها تبيليسي وزار مسجدا يكتب عنه في مذكّراته "أمر الخليفة معاوية ببنائه يوم أرسل جنوده لحماية جورجيا وأرمينيا من جيوش بيزنطة ومطامعها (أنا أشكّ في هذه المعلومة التّاريخيّة. م.ع.طه) وأصرّ معاوية يومئذ على أن يُبنى المسجد خارج حدود المدينة كي لا يزعج الجنودُ العربُ (لا يكتب الجنود المسلمين.م.ع.طه) سكّان البلد المدنيّين. أبدى إمامُ المسجد أسفه لانعدام المصليّن. ورأى سميح صندوقا معلّقا على الجدار وعلم أنّه للتّبرّعات لصيانة المسجد وترميمه وتأثيثه. يقول سميح: "أصابتني قشعريرةٌ. المسجد ليس مجرّد مكان للصّلاة. ليس بيتا آخر من بيوت الله. انّه قطعة حيّة من تاريخي وروحي وشرفي القوميّ وثقافتي وحضارتي" ويُخرِجُ الشّيوعيّ سميح القاسم كلّ ما معه من نقود، ولم يكن

كثيرا، ويضعه في الصّندوق ويصافح الإمام ويحاول إخفاء دموعه. وينتقده المسؤولون الحزبيّون السّوفييت المرافقون له : أنت علمانيّ. فلماذا يهمّك مسجدٌ بناه الخليفة؟ عليك التّخلّص تمامًا من الرّواسب الدّينيّة والقوميّة. ويرفض الشّاعر الشّيوعيّ معارضا الإكراه الدّينيّ والمحو الحضاريّ ويخوض نقاشا فكريّا معهم يصل إلى درجة انتقاده لستالين الذي ألغى الحرف العربيّ واستبدله بالحرف السّلافيّ في جمهوريّات آسيا الوسطى.

اختلف سميح القاسم مع قيادة الحزب الشّيوعيّ في قضايا فكريّة في بداية التّسعينات. وكنّا يومئذ عضوين في اللجنة المركزيّة للحزب. حاولت يومئذ أن أكون وسيطا بينه وبين المكتب السّياسيّ للحزب كي يبقى سميح عضوا في الحزب فنقلتُ مواقف الطّرفين محاولا جسر الخلاف فالتّوفيق. وكان قادة الحزب توفيق طوبي وتوفيق زيّاد وغيرهما حريصين جدّا على بقائه في الحزب. وكان توفيق زيّاد يرى بأنّه شرفٌ للجنة المركزيّة للحزب الشّيوعيّ أن يكون سميح القاسم عضوا فيها.

وافق زيّاد على طلبات سميح القاسم ومنها نشر مقابلة فكريّة معه في صحيفة "الاتّحاد" يطرح فيها موقفه من الفترة الحرجة في تلك الأيّام، ومن القضايا الفكريّة والسّياسيّة التّي واجهتها الحركة الشّيوعيّة يومئذ كما وافق توفيق طوبي أيضا على ذلك. ولكنّ أعضاء آخرين بالمكتب السّياسيّ للحزب رفضوا ذلك، وقد اتّصل بي الشّاعر سالم جبران، عضو المكتب السّياسيّ للحزب ورئيس تحرير صحيفة "الاتّحاد" يومئذ وقال لي بأنّه يرحّب بنشر مقابلة مع سميح القاسم عن شعره وأدبه. رفض سميح ذلك وكتب كتاب الاستقالة من الحزب وجاء إلى مكتبي في مجلّة "الجديد" التّي كنت رئيس تحريرها في تلك الأيّام وناولني إيّاه كي أنقله إلى توفيق طوبي وبقيَ في حقيبتي عدّة أيّام ثمّ أعطيته لطوبي. وعلى الرّغم من استقالته من الحزب بقيَ صديقا لدودا للحزب وكنتُ وإيّاه – على الرّغم من استقالتي أيضا من الحزب – نكتب معا في كلّ معركة انتخابيّة نداءً للنّاخبين العرب كي ينتخبوا قائمة الجبهة.

أذكر أنّ سميح القاسم دعانا مجموعة من الأصدقاء الأدباء والشّعراء للقاء مع الصّحافيّة المصريّة الأميركيّة سناء حسن في بيته في حيفا في أوائل السّبعينات. وكان اللقاء غير وديّ إلى حدّ ما وأذكر أنّ المؤرّخ والمفكّر د.إميل توما انسحبَ بعد فترة قصيرة من بداية اللقاء معبّرا عن اشمئزازه من أفكارها. لقد كتب النّاقد المصريّ د.غالي شكري عن هذا اللقاء في كتابه ولكنّه لم يكن دقيقا وقد حمّل اللقاء ما لا يحتمله.

ولم يكن سميح القاسم عاديّا في تسميته لأبنائه فقد حدّثني أكثر من مرّة وذكر ذلك في مذكّراته "إنها مجرّد منفضة"، ذات يومٍ رافقه د. نبيه القاسم لتهنئة الكاتب العبريّ عاموس كينان بمولد

طفلته البكر. وكانت تربطه بكينان الكاتب والصّحافيّ التّقدّميّ علاقة قويّة. سأل سميح عاموس: ما الاسم الذي منحتموه للمولودة؟ فرّد عاموس: أنت تعلم أنّني طيلة حياتي وأنا أناضل من أجل السّلام لذلك أطلقت على طفلتي الأولى هذه اسم "شالوم تسيون". فوجئ سميح بالشّطر الثّاني من الاسم المركّب. شالوم تسيون؟

يقول سميح : شعرت بالتواء في أعماقي فقلتُ له : أنا سأتزوّج قريبا يا عاموس وسأنجب ولدا اسميه "وطن محمّد" ويتزوّج سميح وينجب ولدا ويكتب "عندما ذهبت إلى مكتب تسجيل السّكّان في عكّا سألني الموظّف: ما اسم المولود؟ - وطن محمّد . – وطن محمّد؟ وماذا يفعل موسى وعيسى؟

بدا من لهجته عراقيّ الأصل فأجبته : عيني. أغاتي. وهل أنا موظّف في وزارة الإسكان مهمّته إسكان الأنبياء والرّسل؟!

وأمّا ابنه الثّاني فاختار له الاسم "وضّاح" وتعرفون قصّة الشّاعر وضّاح اليمن الشّهيرة وأمّا الابن الثّالث فاسماه عمر. وسميح مسلم درزيّ والدّروز فرعٌ من الشّيعة والخليفة عمر ضوء أحمر للشّيعة، وأمّا الابن الرّابع فحمل اسم "ياسر" احتراما وتقديرا لياسر عرفات وذكر سميح أنّ أمّه، أي أمّ سميح هي التّي اختارت هذا الاسم.

كان سميح لا يقرأ لأصدقائه ما يكتبه وما ينظمه، وحدث مرّة أن قال لي: اخترتُ عنوان "وما قتلوه وما صلبوه" للمجموعة الشّعريّة الجّديدة فقلت: وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّهَ لهم. فوافقني وأضافها إلى عنوان المجموعة. وحينما كنت محرّرا أدبيّا لصحيفة الاتّحاد في السّنوات ١٩٨٢-١٩٩٠ أشغل سميح القاسم منصب نائب رئيس التّحرير لفترة قصيرة وحدث أن كان الكاتب إميل حبيبي غائبا في خارج البلاد فانتظرنا وصول سميح في أحد الأيّام لنتشاور معه ونأخذ توجيهاته بالنّسبة لعدد الغدّ من الجّريدة . وصل سميح متأخرا وصعد الدّرجات إلى مكتبه وبعد دقائق شاهدناه يحمل حقيبته وينزل من المكتب ليغادر البناية فسألناه إلى أين أنت ذاهب؟ وماذا مع اجتماع هيئة التّحرير؟ وماذا مع عدد الغدّ؟ فالتفت إلينا وقال: لا تتدخلوا بها وأنا على ثقة من أنّ "الاتّحاد" ستخرج لوحدها. وغادر البناية وتركنا نضحك وشرّ البلايا ما يضحك.

زرنا معا عدّة دول مثل: اليونان، وتشيكوسلوفاكيا والأردن ومصر وسوريا. وفي زيارتنا لسوريا في العام ١٩٩٧ تناولنا في أحد الأيّام طعام الغداء مع أعضاء الوفد ومع المضيفين في مطعم في الزّبداني وجاء نادلٌ يرتدي الملابس العربيّة السّوريّة التّقليديّة وصبّ لنا فنجانين من القهوة السّادة فشربناهما بمتعة. أعدتُ فنجاني للنّادل وشكرته على القهوة العربيّة الأصيلة ولمّا أعاد سميح فنجانه تناوله النّادل ورماه بقوّة على الأرض فهشّمه. استغربنا ذلك التّصرف فلاحظ محافظ المدينة ذلك

فجاء إلينا وقال: هذا التّصرف معناه حرام أن يشرب أحد بعدك من هذا الفنجان! وفي أحد الأيّام وبينما كنّا نسير معا أنا وهو في شارع دمشقيّ اعترض طريقنا شرطيّ وأدّى التّحيّة العسكريّة وبدا يلقي قصيدة من قصائد سميح عن ظهر قلب. فكاد سميح يطير فرحا.

كان نقاشنا يحتدّ أحيانا في مواضيع سياسيّة وأدبيّة وعندما وضعت على طاولتي قبل أيّام مؤلفاته العديدة وبدأت أقرأ اهداءاته لي تذكّرت نقاشنا حول بعض قصائده ورواياته. يكتب على إحدى المجموعات "إلى محمّد علي طه هذه المجموعة أفضل ما في الشّعر العربيّ على الرّغم من أنفك" ويكتب على مجموعة أخرى "إلى محمّد علي طه كاتب جيّد وصديق رديء" واهداءات أخرى عديدة فيها محبّة وتقدير فتذكّرت نقاشنا في تلك الأيّام قبل صدور أو بعد صدور كلّ مجموعة شعريّة أو رواية. كانت لي ملاحظات على روايته الجميلة الصّغيرة "إلى الجحيم أيّها الليلك" وكذلك على رواية "الصّورة الأخيرة في الألبوم" وذات مرّة كنّا في سيّارته أنا وصديقي نبيه القاسم عائدين من المركز الثّقافيّ البلديّ في النّاصرة بعد ندوة أدبيّة فقال ونحن نتناقش حول رواياته: كتب ناقدٌ أنّها أفضل الرّوايات العربيّة. فسألته: من هذا النّاقد المحترم؟ فأجاب: ناقدٌ معروف من مدينة غزّة. فقلتُ : يبدو أنّ هذا النّاقد لم يقرأ رواية غيرها. وضحكنا.

كان سميح القاسم يحبّ شِعره كثيرا ويرى أنّه الشّاعر العربيّ الأول في العصر الحديث وكنت من خلال علاقتي به أشعر بأنّه لا يغار من أيّ شاعر اخر اللهم الا من صديقه ورفيقه محمود درويش واليوم وقد غادر الشّاعران الحياة أقول بثقة وبصدق أنّ أيّا منهما لم يستغب الاخر أمامي ولم ينتقده الا أنّ بعض الشّعراء والأدباء حاولوا إذكاء نار الفتنة بينهما. وكنت أجتهد دائما على أن أكون على بعد واحد منهما فكلاهما صديقي ورفيقي. وقد كتبت مقالا عن "البحر في شعر محمود درويش والصّحراء في شعر سميح القاسم" كما كتبت مقالا مقدّمة للكتاب الذي ضمّ قصيدتيهما "عابرون في كلام عابر" و "غزاة لا يقرأون" ولم أتفاجأ عندما كتب محمود درويش في اهدائي نسخة من مجموعته الشّعرية "لا تعتذر عمّا فعلت" الى صديق العمر محمّد علي طه مع محبّتي. وهذا ما كتبه سميح في رسالته اليّ ولكن لأنّ محمود درويش عاش في الغربة منذ العام ١٩٧١ أصبحت له مكانة خاصّة عندي وهذا ما أوقعني في ورطة مع سميح القاسم في احدى المرّات. فقد عاد الكاتب اميل حبيبي من الخارج في العام ١٩٨٣ وجاء الى مكتب "الاتّحاد" في وادي النّسناس بمدينة حيفا وفي جيبه شريط مسجّل بقصيدة محمود درويش " مديح الظلّ العالي" التي ألقاها في المؤتمر الوطنيّ الفلسطينيّ في الجزائر. ناولني اميل الشّريط وقال لي "تصرّف فيما تراه مناسبا" وعندما عدت الى بيتي استمعت الى القصيدة وبالقاء محمود الجميل فاخترت مقاطع منها ونشرتها على صفحة كاملة من صفحات "الاتّحاد" الكبيرة في ذلك الوقت وكتبت في الجانب الأيمن من الصّفحة عامودا كاملا

اطراء للقصيدة وجاء فيه "أهلا بك يا شاعر الشّعراء". وغضب سميح من ذلك وأظنّ أنّ هذه الجملة كانت السّبب في قوله عنّي "كاتب جيّد وصديق رديء" والذي تراجع عن شطره الثّاني فيما بعد.

في صيف ١٩٥٥ أخبرني طبيب العائلة بأنّني مصاب بداء السّكريّ فتضايقت نفسيًا لعدّة أيّام ثمّ صادقت الدّاء وتفاهمتُ معه فلا أتجاوز حدوده ولا يعتدي عليّ. علم سميح بنزول هذا الضّيف الثّقيل في جسدي فجاء من مكتبه في صحيفة "كلّ العرب" في مدينة النّاصرة ليعودني في بيتي في كابول. صافحني وقدّم لي هديّة عبارة عن زجاجة عطر فاخر وعلبة من حلويات النّاصرة الشّهيّة. وابتسم وهو ينظر الى الهديّة واليّ وسألني: ها... ماذا تقول الهديّة يا أبا عليّ؟ فقلتُ على الفور: شُم ولا تذوق! وتعانقنا.

وكان من عادته أن لا يقبّل رجلا بل كان حينما يعانقك يمدّ خدّه اليك لتقبّله.

وكنت أعامله بالمثل فيضحك مرّات ويبتسم مرّات أخرى.

اعتاد أبنائي أن يقولوا لي مازحين لي أنّ هناك "وشّة" أو "زمزمة" في رأس كلّ واحد من أصدقائي الشّعراء، ماعدا عمّو سميح. وحدث أن ماتت زوجة أخي وهي شابّة وجاء سميح مع أقارب له لتقديم واجب العزاء للعائلة، وبعد أن استقبلناهم بالتّرحاب، وبعد أن سمعنا العبارات التي تقال في هذه المناسبات سأل سميح عن سبب موتها فقلنا له مرض السّرطان. فقال:هذا شيء عظيم. أن يموت الإنسان نتيجة سبب كبير شيء مهمّ ومحترم. مثلا أن يموت أذا دهسه قطار أو سقطت طائرة به أو استشهد في معركة. وطبعا هذا موت محترم أن يموت بالسّرطان.

نظر أولادي إليه باستغراب مدهوشين في حين أنّه تابع: إذا مات الانسان بسبب كبير فهذا محترم وأمّا أن يموت لسبب تافه فهذا بهدلة. تصوّروا مثلا أن يتزحلق في الحمّام ويموت.!!

وبعد أن غادر سميح ورفاقه بيت العزّاء قال لي أحد أبنائي: يبدو أنّ عمّو سميح مثل بقيّة الشّعراء.

حاولت في هذه الصّفحات أن أختصر صداقة خمسة وخمسين عاما في صفحات معدودة فهل توفّقت؟

راجعت هذه المادّة لأنقّحها وفي أثناء قراءتي لها فرّ الدّمع من عينيّ عندما اكتشفت أنّني كتبت عن سميح وعن محمود وعن توفيق وعن حنّا وعن سالم ..... ذهب الذين أحبّهم. وبعد دقائق ابتسمت حينما تذكّرت المثل الشّعبيّ "أعوذ بالله من شابّ إذا تغرّب ومن شيخ مات أجياله أي مات مجايلوه" فهل أنا الشّطر الثّاني من المثل؟

سامحوني.. سامحوني..!!